أ.د. صباح زنكنة
عضو الجمعية العمومية
للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية - ايران

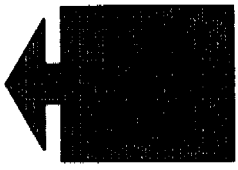

تنوع المؤامرات: بؤر الأزمات في العالم الإسلامي وخصائصها

مقدمة:

يعيش العالم الإسلامي مرحلة حساسة من تأريخه، وذات تأثير كبير على مستقبله.

فمن ناحية، تعود الشعوب الإسلامية الى اكتشاف ذاتها وهويتها، وتعيش حالة القلق من نهب ثرواتها ومن ناحية تواجه تحديات جمة في كيانها وكيفية انتخاب طريقها ومنهجها، وتعاني ضغوط الداخل والخارج في استقلال قرارها وحرية تعبيرها، بل وتموه لها الرؤية حتى تعود غير قادرة على التمييز بين المناهج والطرق وتحاول التيارات ان تستنزف ارادتها وعزمها.

وفي هذه الأوساط والأجواء، نرى أن زرع الإختلاف والتفرقة بين كياناتها لا تدع لها فرصة لالتقاط الأنفاس والتروي لمعالجة الأزمات.

ومع ذلك، فإن هنالك مشتركات في نوع الأزمات التي تواجه الشعوب الإسلامية، كما إن هناك خصائص تختلف من كيان الى كيان ومن مكان الى آخر. وسنركز على موضوع الوحدة الإسلامية وأزمة التفرقة.

ومعرفة تلك المشتركات والمميزات، ستساعد بلا شك، في اختيار نوع الحلول وطرق معالجتها للأزمات، وانتخاب الآليات والوسائل الناجعة في هذا السبيل وهذا ما نحاول الوصول اليه في هذه الورقة والبحث.

في جولة سريعة في شتى بقاع العالم الإسلامي، نجد أن النقاط الساخنة متعددة وكثيرة، وتمتد غالباً في القارتين آسيا وافريقيا، وهما القارتان الأكثر ازدحاماً بالسكان المسلمين.

وهذه من نقاط الإشتراك في بؤر الأزمات وخاصةً التفرقة الطائفية، وتتركز هذه الفتن الطائفية أكثر فأكثر في اتجاه قلب العالم الإسلامي في لبنان والعراق، لكنها ليست أقل حدةً في الباكستان وأفغانستان.

وتأخذ طابعاً آخر من الصراع في السودان وتشاد، وأخيراً في اليمن.

وهنالك محاولات لإذكاء الفتنة الطائفية أو العرقية والطائفية في إيران أيضاً.

وفي أحيان اخرى نشهد شرارات الفتنة في مصر والجزائر والمغرب أيضاً، ترتفع ثم تهدأ أو هكذا يخيل لنا.

ولم تسلم الهند من خلافات بين المسلمين بين الحين والآخر رغم إن المسلمين هناك يشكلون أقلية كبيرة. والأقليات لها أحكامها في الحراك الإجتماعي.

الأقليات الإسلامية والإختلافات الطائفية :

وفي التفاتة خاطفة للأقليات الإسلامية في خارج العالم الإسلامي، نشهد بعض ملامح الخلافات والتفرقة لكنها لم ترتفع الى السطح كثيراً. وكأن قلب العالم الإسلامي

يعج بالخلافات أكثر. فهل إن أطراف العالم الإسلامي ستساعد في إسترداد الوحدة والعافية ؟

إذاً ما الذي يجعل بعض المناطق أشد توتراً، وأكثر استعداداً للأزمات وإضطراب الأمواج الإجتماعية ؟

وهل إن هنالك ظروفاً ذاتية تجعل المحيط مواتياً للاختلافات والتفرقة ؟

أم إن الظروف، موضوعية وخارجية، تفرض نفسها على تلك المجتمعات ؟ أم إن العوامل المؤثرة خليطٌ بين الداخل والخارج، وبين الذات والموضوع ؟

و لماذا نشهد اشتداد الفرقة والخصام في ظل ظروف معينة، وهدوئها في نفس المنطقة، في ظل ظروف أخرى ؟

فالسؤال الأساسي، إذاً، هو : ما هي خصائص بؤر الأزمات في العالم الإسلامي ؟

لابد من التأكيد على حقيقة علمية إجتماعية، ألا وهي إن التعميم في القضايا الإجتماعية، لا ينفع إلا للخطاب الإعلامي والسياسي، وهذا التعميم لن يفسر لنا الواقع المؤلم، كما إنه لن يعطينا أية علامة أو إشارة ارشادية لمعالجة الأزمات والمعضلات الإجتماعية.

ومن هنا، تتضح أهمية معرفة خصائص بؤر الأزمات واستكناه ما تفرزه من نتائج إجتماعية وثقافية وسياسية.

نماذج من مناطق الأزمات :

إن تحديد الفترة الزمنية بالتاريخ المعاصر، ربما ينفع للخروج من مرض التعميم الزمني ويسرع في التوصل الى نتائج عملية.

لكن الإمتداد العمودي في الزمن لدراسة الحالة الثقافية والسياسية للمجتمعات يمكن أن تنفع ، في بعض الحالات على إختلاف الظروف.

١ – ففي حالة الباكستان واشتداد التفرقة الطائفية فيه، ربما لا نجد نماذج ضاربة في

القدم لهذا الصراع ؛ حيث إن الباكستان، حديثة عهد بالاستقلال والتكوين على أسس دينية. ومع ذلك، فإن ما زرعه الإستعمار البريطاني في هذا البلد المسلم من خلافات وشبكات، وما رعته أيدي نظام السلطة الأمريكية في وراثتها للسلطة البريطانية، وما جاء به استغلال العامل الديني من قبل الغرب وبعض الدول الحليفة له لإخراج الإحتلال السوفيتي من أفغانستان، كلها تشكل ظروفاً جديدة خلال العقود الماضية منذ منتصف القرن الماضي وإلى الآن.

لكن النتيجة، واحدة ؛وهي : إن أبناء المسلمين هم حطب هذه النيران وضحاياها.

٢ – أما في حالة العراق، وعلى الرغم من وجود نماذج تأريخية للصراع الطائفي، مما أدى في بداياته، الى هجرة العلامة الشيخ الطوسي من بغداد الى النجف الأشرف، بعد أن أحرقت مكتبته وطارده حكام السلاجقة (وهم غرباء عن العراق) في بغداد، وإثارة سكان الكرخ والرصافة ضد بعضهم البعض ؛ وإستئثار بقايا العباسيين بالحكم وإرغام الناس على التنصل من معتقداتهم ومحاربة محبي أهل بيت النبوة وقتلهم ومطاردتهم، على الرغم من وجود الأخطار الداهمة من هجوم التتار والمغول من جهة، وخطر الحروب الصليبية من جانب آخر.

أقول، على الرغم من وجود العامل السياسي (المحلي أو الأجنبي) لإثارة الصراع الطائفي، في القرن الرابع أو الخامس الهجري ؛ إلا أن طبيعة الصراع الطائفي وإثارة الخلافات في السنوات الأخيرة، لا يعني أن الشعب العراقي (بقومياته وتركيبته المذهبية والاجتماعية) يحمل بذور الخلاف في ذاته. بل إن الظروف الجديدة، بعد سقوط الطاغية، وإختلال الموازين الإقليمية، أدى الى تدخل قوى أجنبية غربية وعربية لإثارة النعرات الطائفية وجهزت ودعمت القوى والتيارات التي لا تؤمن بالدين أساساً، وأضفت عليها غطاءً دينياً لخلق المبررات للإقتتال والثأر والضغائن. ويشهد التاريخ العراقي بالتلاحم والتزاوج والتعاطف والتعاون بين قطاعات وفئات ومكونات الشعب العراقي كافة.

وقد حاول بعض السياسيين، التنظير لتلك الخلافات التي إبتدعوها، وأجهدوا أنفسهم لإثبات الجذور التاريخية للتناحر الطائفي وتناسوا إن أغلبهم ذوي عوائل متشابكة، بين زوج من طائفة وزوجة من طائفة أخرى، وبين أفراد عشيرة وقبيلة نصفهم من طائفة والنصف الثاني من طائفة ثانية.

٣ – وفي الحالة اللبنانية : نجد أن الوعي الإجتماعي والسياسي الخاص بهذا البلد والتعايش السلمي بين الطوائف الإسلامية، أبقى الخلاف في حدود الشد والجذب السياسي فقط ولم تسمح الحالة بتجاوزه الى حالات العنف ؛ مع العلم إن محاولات أجنبية، إقليمية وعالمية حاولت صب الزيت على النار، وتأجيج الخلافات السياسية تحت أطر طائفية، ودخلت جموع من تنظيم القاعدة وغيرها تحت عباءة المذاهب والمخيمات الفلسطينية، لكنها باءت بالفشل الذريع، وبقيت الساحة منضبطة في حدود التوازنات السياسية.

٤ – أما الحالة اليمنية، فهي جديدة لم تعهدها اليمن سابقاً، حيث أن ألوان الطيف المذهبي في اليمن لم يسبق أن يتحول الى تخندق طائفي، أو هكذا تم تصويره إعلامياً.

الحالة في صعدة ومحيطها، لا يمكن أن تسمى صراعاً طائفياً أو مذهبياً، حيث لا توجد مشاحنات أو مناكفات مذهبية، بينما المذاهب وأتباعها منتشرون في اليمن من جنوبه الى شماله، ومن سواحله الى جباله.

ولم يسبق أن دخلت الخلافات العشائرية أو السياسية، لا في عهد الأئمة ولا في العهد الجمهوري، حلقة الخلافات المذهبية.

إذاً ما الذي حصل ولماذا التركيز على إضفاء الطابع المذهبي للقتال الذي دار في صعدة ؟

لكن بدل الدخول في التفاصيل، أحسب أن استعداد الولايات المتحدة الأمريكية للتدخل في اليمن، ربما يعطي التفسير الشافي لكل هذه الضجة والمعارك والأزمات المتنوعة في اليمن. فهل إن موقع اليمن الإستراتيجي هو الذي يملي هذه الأساليب

والضجة الإعلامية ؟ وبصدور فتوى ١٥٠ عالماً دينياً يمنياً بتحريم التعاون العسكري مع أعداء الدين والأجانب فإن الصورة أصبحت أكثر وضوحاً.

٥ – السودان، أيضاً يعتبر حالةً خاصةً من الوئام والتسامح. ولكن الصراع الدموي في دارفور، يتم بين فرقاء مسلمين ؛ إذ أن التغير المناخي وتآكل المزارع والغابات وتقلص مصادر المياه، يعتبر عاملاً قوياً للهجرة القبلية، يضاف إليها، إكتشاف مخزون كبير للبترول في هذه المنطقة وتكالب الدول الكبرى لإستغلال هذه الثروة العظمى، وبذلك تتدخل القوات الغربية هنا وهناك وتدعم بالمال والسلاح كل من هب ودب للقتال وإجتثاث الجانب الآخر.

٦ – أما الضجة في مصر حول " التبشير الشيعي " فإنها تتزامن مع إشتداد الأزمة بين إيران ومصر، وتتزامن مع إعتراضات الشعوب المسلمة على سياسات تجويع وحصار الشعب الفلسطيني في غزة.

ومن هناك، فإن هذه الضجة تبرز الى السطح حيناً وتنزوي أحياناً أخرى.

من هذه القراءة السريعة، نسعى الى إستخراج بعض المؤشرات المؤثرة في تمايز حالات التفرقةوالخلافات الطائفية، ونذكر منها :

١ – مستوى الوعي الإجتماعي والثقافة الدينية للشعوب، فكلما ازداد الوعي وتحسنت الثقافة الدينية وانفتحت العقول، كلما هبط إمكان تحريك الشعوب وإستغلال عواطفها ضد مكوناتها المذهبية الأخرى.

٢ – دور علماء الدين، وإرتباطهم المادي بالسلطة السياسية، فكلما إعتمد العلماء على الدعم الحكومي، ساقهم هذا الإعتماد الى مماشاة السلطةالسياسية واتباع سياساتهابإستغلال الدين وعنصر المذهبية والطائفية، واصدروا الفتاوى وجيشوا الشارع والجماهير ضد المذاهب الأخرى.

٣ – التطورات والأحداث السياسية وتغيير موازين القوى السياسية، في بعض البلاد، وعدم تمكن السلطات السياسية من مجارات الأحداث بالاتكال على آليات

وهيكلية اللعبة السياسية، فإن تلك السلطات تتجه لاستغلال البعد الديني والطائفي لخلط الأوراق وإظهار الأمور وكأن التغيير السياسي خطرٌ على مذهب بعينه.

٤ – العمق التاريخي لجذور الأجهزة الحزبية العلمانية، والإستخبارات (كما هو الحال في العراق والباكستان)، مما تلجأ اليه هذه الأجهزة لتحريك قطاعات من الجماهير ضد قطاعات أخرى، وتعكير الأجواء وثم الإصطياد في المياه العكرة.

٥ – إمتداد جذور الثقافة المسالمة والمتسامحة، والوسطية أو عدمها، تظهر في بلادٍ معينة، وربما تواجه هذه الثقافة بإجتثاث أعدادٍ كبيرة من رجالات الفكر المسالم والبناء، مما يؤدي الى ظهور التيارات المتطرفة.

٦ – وجود البعد العرفاني والمعنوي في التراث الديني، مما يسمو بالشعب فوق الخلافات السياسية، ويطهر النفوس من التكالب على السلطة أو حطام الدنيا.

٧ – العمق القومي والعمق الديني، اللذان يتمازجان في أحيانٍ كثيرة مما ينتج تبلور هوية ثقافية تقف أمام الغزو الثقافي الأجنبي ؛ وتستغل بعض الجذور القومية في أحيان أخرى للوقوف أمام العمق الديني وإستغلال العنصر القومي لمناهضة الدين ؛ وتأخذ هذه الحالة، في بعض الأوقات، شكل الصراع والخلاف المذهبي لقومية مقابل قومية أخرى....

٨ – مدى التغلغل الأجنبي في البلدان الإسلامية، عن طريق تواجد المستشارين أو القوات العسكرية والإستخبارات، أو آليات ووسائل الإعلام والتثقيف أو التعليم العام. فمن خلال عمق التغلغل هذا، ستقوم القوى الأجنبية المسلطة أو المحتلة بإثارة الشغب والصراع الطائفي للسيطرة على البلاد وإبقاء الكتل الإجتماعية بعيدة عن بعضها البعض، وإيجاد حالة من الشك والريبة في سلوك بعضها تجاه الآخر.

* * *

و الخلاصة : إن حالات التفرقة والاختلاف أو الصراع في البؤر المعروفة، لا يمكن إدراجه تحت عنوان كلي جامع من ناحية الظروف المؤدية الى نشوئها وتطورها ؛ وبناءً

على ذلك فلن يكون الحل واحداً ومتشابهاً في كل الحالات ولا بد من دراستها من قبل المختصين والمخلصين ومعالجتها حالة بحالة.

لكن هذا لا يمنع من قيام فريق من العلماء والمخلصين والمفكرين، بمتابعة هذه الحالات واستخلاص الوسائل والطرق المناسبة لعلاجها.

وفقنا الله وإياكم للعمل الصالح " وقل اعملوا، فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون " صدق الله العلي العظيم.